

الفصل الثانى

الفرعون

لم يكن هذا اللفظ فى البداية أكثر من تعريف اصطلاحى إدارى، كتب فى صيغته المصرية «برعو» أو «برعا» بمعنى البيت العالى أو البيت العظيم الذى يتجه الشعب إليه بمشاعر التعظيم والأمل والولاء والرغبة. ثم امتد مدلول لفظ «برعو» من البيت العظيم أو قصر الملك والذى ساد منذ الدولة القديمة إلى الدلالة فيما بعد على الملك نفسه، ساكنه الذى يعتلى عرشه المقدس.

وقد يفهم هذا بمقارنته بما شاع فى العصر العثمانى مثلاً بعد عشرات القرون بالتعبير عن القصر الذى يقطنه السلطان وبالتالى عن السلطان نفسه بـ «البيت العالى»، بل ومقارنته بما تذكره لغة الصحافة الحديثة عن سياسة «البيت الأبيض» فى الولايات المتحدة مثلاً، وتعنى بها سياسة رئيس الدولة وجهازه الأعلى. غير أنه لم تثبت دلالة هذا اللفظ على شخص الملك إلا منذ الأسرة الثامنة عشرة وتحديداً فى عهد اخناتون (١٣٦٥ - ١٣٤٩ ق.م تقريباً) إذ لقب بذلك على بعض آثاره، كما خوطب به فى بعض ما وجه إليه من كتب^(١).

ففى خطاب من أهالى مدينة «تونيب» فى فلسطين إلى اخناتون يستغيثون به ويطلبون العون منه حتى لا تقع مدينتهم تحت نفوذ الملك الحيثى «سوبيلوليوما» ويذكرونه أنهم أرسلوا له من قبل عشرين رسالة ولم ينجدهم، يشيرون فى هذه الرسالة إلى الملك بالفرعون: «والآن فإن مدينتك تونيب تبكى ودموعها تسيل ولا ناصر لها، ولقد أرسلنا عشرين رسالة إلى مولانا فرعون مصر ولا مجيب»^(٢).

وشاع بالتالى لفظ «فرعون» مع الاسم الشخصى لكل ملك مصرى بعد ذلك. كما شاع فيما بعد ذلك بقرون طويلة لقب «قيصر» على كل حاكم أعلى للرومان والبيزنطيين، وشاع لقب «كسرى» بين العرب على كل ملك فارسى، ولقب «نجاشى» لكل ملك حبشى.

(١) عبد العزيز صالح (دكتور)، الشرق الأدنى القديم، ج١، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٩٠، ص٨٢.

(٢) سيد توفيق (دكتور)، معالم تاريخ وحضارة مصر الفرعونية، دار النهضة العربية، ١٩٩٠، ص٢٩٥.

وحرفت النصوص العبرية لفظ «برعو» إلى «فرعو» نظراً لاختلاط نطق الباء مع الفاء فى اللغات القديمة، ثم أضافت اللغة العربية إليه النون الأخيرة^(١).

على أن لقب «فرعون» لم يستعمل فى أى وقت من التاريخ كلقب حقيقى رسمى للملك^(٢). بل كانت هنالك خمسة ألقاب رسمية للحاكم فى مصر القديمة أولها لقب «حور» أو «حورس» ومعناه أن الملك بمجرد اعتلائه عرش الملك يلقب باسم «حورس» أى إنه صورة حية من هذا الإله تعيش على الأرض.

واللقب الثانى كان يمثل فى صورة نسر (رمز الجنوب) وصل (حية رمز الشمال) كل منهما يركز على سلة رمز للملكية^(٣). وكلاهما «نبتى» أى التاجان الأبيض للجنوب والأحمر للشمال. أى إن لقبه هنا أنه «الملك صاحب التاجين» الأبيض والأحمر رمزى الجنوب والشمال.

واللقب الثالث كان يسمى بالمصرية «النيسو - بيتى» ويعنى ملك مصر العليا والسفلى أوسيد الأرضين الوجه القبلى والوجه البحرى، وهو حرفياً المنتمى إلى نيسوت (الغاب رمز الوجه القبلى) وبيتى (النحلة رمز الوجه البحرى أو مصر السفلى).

وكان اللقب الرابع والذى ظهر فى عهد الملك «سنفرو»^(٤) وهو «حور - نب» أى حور القاهر، إشارة إلى تغلب حورس ابن أوزير على عمه الشرير «ست» كما تروى أسطورة «ايزيس واوزيريس»، أى إن الملك هو حورس المنتصر. غير أن البعض يترجمه «حور الذهبى»^(٥).

أما اللقب الخامس فكان «ابن رع» أو ابن إله الشمس، وظهر فى أواخر عهد الملك منكاورع أى أواخر الأسرة الرابعة. لتكتمل بذلك الألقاب الملكية الخمسة الرسمية والتي بقيت كذلك حتى أواخر عهد الحكم الرومانى^(٦).

ولم تكن هيئة فرعون أقل فخامة، إذا جعله شاراته فى مصاف الآلهة. فكان يضع كالآلهة ذنب حيوان متصلاً بحزامه ويتدلى من وسطه. ويضع لحية مستعارة كانت هى

(١) عبد العزيز صالح (دكتور)، المرجع السابق، ص ٨٣.

(٢) جورج بوزنر وآخرون، معجم الحضارة المصرية القديمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦، ص ٢٥٥.

(٣) سليم حسن، مصر القديمة، ج ١، ص ١٦٦ - ١٦٧.

(٤) سليم حسن، المرجع السابق، ص ١٦٨.

(٥) جورج بوزنر وآخرون، المرجع السابق، ص ٢٥٥.

(٦) سليم حسن، المرجع السابق، ص ١٦٨.

نفسها إلهاً، ويحمل صولجاناً مزيناً برأس حيوان الإله ست. وأضيفت عليه من حالات العظمة والبطولة ما صورته ببنيّة بطل يسيطر على الحشود ولا يوجد من يستطيع مقاومته أو يصد ضرباته أو يفر من مطاردته. يقف وحده في ساحة القتال فيكيل بالألوف من أعدائه، وكما تقول النصوص «والخوف الذي يبثه، يُلقى الرعب في قلوب البرابرة في بلادهم»، لا تخفى عنه خافية ويسير وبعينه الأغوار العميقة، بلغت خطه درجة الكمال فكل ما يأمر به يتم ويتحقق». ومع هذه الصفات التي تضيف الهيبة والرعب تصفه نصوص أخرى بأنه لا يعرف كرمه حدوداً وضمن السعادة لرعيته فيحمي الضعيف ويقيم العدل «ماعت»^(١). والخلاصة من هذا التناول لأصل لفظ «فرعون» أنه تعريف اصطلاحى إدارى ولقب غير رسمى للملك بعد الأسرة الثامنة عشرة.

وتجدر الإشارة إلى دقة الذكر القرآنى فى عدم استخدامه لفظ فرعون إلا فيما روى عن ملك مصر المعاصر لموسى عليه السلام فقط وذلك فى ٦١ موضعاً، منها ١٣ موضعاً مسبوqاً بلفظ آل، و ٧ مواضع مصحوباً بلفظ ملئه، و ٥ مواضع مصحوباً بلفظ قوم، وأربعة مواضع معطوفاً معه «هامان» وزيره. بينما لم يذكره مرة واحدة فيما أورده من ذكر لحاكم مصر الذى عاش فى عهده يوسف عليه السلام والذى أشار إليه القرآن على أنه ملك، بخلاف التوراة التى تلقب كليهما بالفرعون كما فى سفر التكوين وسفر الخروج، بل وتشير إلى فرعون موسى على أنه ملك فى بعض المواضع.

ففى سفر التكوين (٤١ : ١ - ٨) : «وحدث من بعد سنتين من الزمان أن فرعون رأى حلماً.. وكان فى الصباح أن نفسه انزعجت فأرسل ودعا جميع سحرة مصر وجميع حكمائها وقص عليهم فرعون حلمه فلم يكن من يعبره لفرعون». ويقصد بالفرعون هنا ملك مصر فى عهد يوسف عليه السلام.

«ثم قال يوسف لإخوته وأبيه أصدأ وأخبر فرعون وأقول له إخوتى وببيت أبى الذين فى أرض كنعان جاءوا إلي» (التكوين ٢١ : ٤٦).

«وأخذ من جملة إخوته خمسة رجال وأوقفهم أمام فرعون، فقال فرعون لإخوته ما صناعتكم فقالوا لفرعون عبيدك رعاة غنم نحن وآباؤنا جميعاً» (التكوين ٤٧ : ١ - ٣). وعن فرعون موسى :

(١) جورج بوزنر وآخرون، المرجع السابق، ص ٢٥٥.

«فنزلت ابنة فرعون إلى النهر لتغتسل وكانت جواربها ماشيات على جانب النهر»
(الخروج ٢: ٥).

«فقال موسى لله من أنا حتى أذهب إلى فرعون وحتى أخرج بنى إسرائيل من مصر»
(الخروج ٣: ١١).

بل إن العهد القديم يشير في بعض نصوصه إلى فرعون موسى على أنه الملك بجانب لقبه
«فرعون» وهذه أمثلة على ذلك:

«وحدث في تلك الأيام الكثيرة أن ملك مصر مات، وتهد بنو إسرائيل من العبودية
وصرخوا، فصعد صراخهم إلى الله من أجل العبودية» (الخروج ٢: ٢٣).

«ولكنى أعلم أن ملك مصر لا يدعكم تمضون ولا بيد قوية» (الخروج ٣: ١٩).

مع أن وجود يوسف عليه السلام كان سابقاً لموسى بنحو خمسمائة عام، حيث قدر
العهد القديم مدة إقامة بنى إسرائيل في مصر بأربعمائة وثلاثين عاماً وهي المدة الممتدة منذ
دخول يوسف عليه السلام مصر، والتي كانت فيما يرجح في عهد الهكسوس الذين غزوا
مصر أواخر الأسرة الرابعة عشر (١٧٨٦ - ١٦٠٣ ق.م) وحتى مولد موسى عليه السلام فيما
يرجح في عهد رمسيس الثاني (١٢٩٨ - ١٢٣٢ ق.م).

ولقد ذكر القرآن فرعون موسى وخصه بهذا اللقب دون سائر ملوك مصر قصراً عليه وحده
بما وصفه به من المروق والطغيان، ذلك الطغيان الذي صار اسم فرعون في نظر الناس علماً
عليه، وما كان منه من التكبر والاستعلاء والإجرام والتأله.

وقد قدر الله أن يختص واحداً من سائر الفراعنة بهذا الذكر وهذه الصفات ذلك هو فرعون
الذي صحبه وخدمه رجل من خاصته وحاشيته وهو «هامان». وعاش في عهده رجل ثرى
صاحب أموال وكنوز وهو «قارون» وذلك حين الحديث عن إرسال موسى عليه السلام
وجهر بالتحدي والتكذيب فحقت عليه الكلمة كما يفهم من سياق الآيات:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَمْنَا وَفَرُّوْكَ فَقَالُوا
سَنَجْرُّكَ دَابًّا ﴿٢٤﴾﴾ [سورة غافر].

﴿وَنُكِّنْهُمْ فِي الْأَرْضِ فِرْعَوْنَ وَهَمَمْنَا وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾
[سورة القصص].

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطَّيْنِ

فَأَجْعَل لِّي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ [سورة القصص].

أما قارون فقد كان من قوم موسى بل يقول البعض بأنه ابن عمه ، أى من بنى إسرائيل الذين كانوا يتعمون بعطف فرعون وكرمه ، وإلا لما وصل إلى ما وصل إليه من الثراء والغنى على الرغم من أنه من الاسرائيليين الذين ينظر المصريون إليهم على أنهم من الطبقة الدنيا. ولهذا فكان من اليسير عليه وحسبما تشير منطقية الأمور أن يكون «فرعونى» المذهب ومتملقا منافقا ، فإن مذهبه فى الحياة حيث تكون أمواله فى مأمن ونماء. ولقد فصل القرآن قصته فى [سورة القصص]:

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٢٦﴾ وَابْتَغَى فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۗ أَلَمْ يَعْلَمِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْبَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٢٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۗ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بَلِّغْنَا لَنَا مِنْ مِثْلِ مَا آوَفَ قَارُونَ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُفْلِحُهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٣٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٣١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَافُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۗ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنَّ مِنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَافُنَا ۗ لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٣﴾﴾

ولقد كان قارون صديقاً حميماً للفرعون دون بنى إسرائيل جميعاً ، وذلك بحكم ثرائه الفاحش ولعله بذلك يعكس الازدواجية المعهودة أو ما اصطلح على تسميته بتزواج السلطة بالمال فى ظل توحيد المبدأ والهدف ، وهو ما تعانى منها المجتمعات الإنسانية منذ القدم وحتى الآن. وقد جمع الله المكذبين الثلاثة : فرعون وهامان وقارون فى آية واحدة وكيف كانت نهايتهم فقال تعالى :

﴿ وَقُرُونِ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ ﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَأَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ
 وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣١﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ
 الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ
 وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ [سورة العنكبوت].

ومن هنا نفهم من السياق القرآني فيما ورد من آيات أخرى عن موسى وقومه أو عما جرى
 بين موسى وفرعون من حوار على أنه ذلك الفرعون الذي لم يشأ القرآن أن يسميه بذاته.
 أما التعميم في أول سورة القصص ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ
 طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدِّبُحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ﴿٤﴾ [سورة القصص].
 فينصرف الخبر فيه إلى ما وقع لموسى مع فرعون عصره، والذي كان يضطهد بنى
 إسرائيل ويذبح أبناءهم ويستحي نساءهم ويسمهم سوء العذاب.

وبصرف النظر عن كون هذا الفرعون فإن ما يعنينا هنا ما يمكن أن نطلق عليه اصطلاحاً
 «الفرعنة» أو «الفرعونية» أو جملة الصفات الذميمة التي كان يتصف بها فرعون موسى
 واستحق اللعنة عليها، وهو ما ركز القرآن الكريم عليه في سياق سرده لقصة موسى مع من
 عاصره من الفراعنة.

□□□